الكتاب الرابع

الامبراطورية

١٤٦ ق.م — ١٩٢ م

obeikandl.com

جدول بالحوادث التاريخية

مرتبة حسب تواريخها

ق . م

١٢٠٠ الكلت الجيد ليون يغزون إنجلترا .
٩٠٩ الكلت البريثونيون والبلجيون يغزون إنجلترا .
٣٥٠ بيثياس المرسيلي يرتاد بحر الشمال .
٢٤٨ بداية الأسرة الأرساسية في بارثيا .
٢٤١ — ١٠ صقلية تصبح ولاية رومانية .
٢٣٨ الاستيلاء على سردينية وكورسكا .
٢١١ — ١٩٠ أرسيس الثاني ملك بارثيا .
١٧٠ — ٣٨ مثرداتس الأول ملك بارثيا .
١٦٨ الاستيلاء على مقدونية .
١٦٨ إليريكم .
١٤٦ آخية ، « أفريقية » ، إبيروس .
١٤٥ — ١٣٠ بطليموس السابع .
١٣٥ — ١٠٥ يوحنا هركانس ، ملك اليهود .
١٣٥ — ٥١ بوسيدونيوس .
١٣٣ أتلس الثالث يوصي لرومة ببرجم .
١٢٤ — ٨٨ مثرداتس الثاني ملك بارثيا .
١٢١ جالياقا ربننس .
١١٢ — ٥ الحرب الجوجرثية .
١١٠ فيلو البيزنطي ، العالم الطبيعي .
١٠٤ — ٧٨ الكسندر جانيوس ملك اليهود .
١٠٢ قليقية ؛ بمفيليا .
٨٨ — ٤ الحرب المثرداتية الأولى .
٨٨ مذبحة الرومان في الشرق الأدنى .
٨٢ — ١ الحرب المثرداتية الثانية .
٧٨ — ٦٩ الكسندره ، ملكة اليهود .
٨٦ توماكس البيرنطي ، المصور
٧٥ — ٦٣ الحرب المثرداتية الثالثة .
٧٤ بيثينيا .
٧٤ — ٦٧ فوريني وكريت .

obeikandl.com

ق . م

٦٩ — ٦٣ أرستو بولس الثانى ملك اليهود .

٦٤ سوريا .

٦٣ بنتس وبلاد اليهود تصبحان ولايتين رومانيتين .

٦٣ — ٤٠ هركانس الثانى ، ملك اليهود .

٥٨ قبرص .

٥٨ — ٥٠ قيصر يفتح غاله .

٥٥ — ٥٤ قيصر فى بريطانيا .

٥٠ هيرو الإسكندرى ؛ مليجر الحدرانى .

٤٦ نوميديا .

٤٠ البارثيون يغزون سوريا .

٣٧ — ٤ هيرود الأكبر .

٣٠ مصر .

٢٥ جلاتيا .

٢٥ — ٤ حملة إيليوس جالس على بلاد العرب السعيدة (اليمن) .

١٧ الأستيلاء على ألمانيا العليا والسفلى

١٥ نوركم ، ريتيا .

١٤ جبال الألب البحرية .

١١ موسيا .

٧ وما بعدها : استرابون الجغرافى .

٤ ؟ مولد المسيح .

٤ق . م — ٦ م : أكلوس ملك اليهود ، هيرود انتيباس ، تترارك الجليل .

١٧ م كپدوكيا .

٤٠ موريتانيا .

٤٣ بريطانيا .

٤٧ ثورة كركتاكس .

٥٠ ديوسكريدس ، الصيدلى .

٥١ ٦٣ حرب پارثيا وروما .

٥٥ — ٦٠ كريولو يخضع أرمينية .

٦١ ثورة بودكا .

٦٤ جبال الألب الكتية .

٧٠ — ٨٠ فتح الرومان البلاد ويلز .

٧٧ — ٨٤ أجركولا حاكم بريطانيا .

٧٢ انقراض الأسره السلوقية .

٨٩ أفلوطرخس فى روما ؛

٩٠ إپكتتس .

٩٥ ديوكريسم .
١٠٠ أبلودورس الدمشقى ، المهندس المعمارى .
١٠٥ بلاد العرب الشمالية .
١٠٧ داشيا .
١١٤ أرمينية ، أشور ، أرض الجزيرة .
١١٥ سورانس الإفسوسى ، الطبيب .
١١٧ هدريان يتخلى عن أرمينية وسورية .
١٢٠ مارنيس الصورى الجغرافى .
١٢٢ سور هدريان فى إنجلترا .
١٣٠ إيليا كپتو لينا تشاد فى موضع أورشليم ، بشون الأزميرى العالم الرياضى ؛ أريان النقوميدى المؤرخ ؛ كلوديوس بطليموس الفلكى .
١٤٢ سور انطونينس پيوس فى إنجلترا .
١٤٧ — ٩١ فلوچيسس الثالث ملك بارثيا .
١٥٠ لوشيان ؛ إيليوس أرستيديز .
١٦٠ جالينوس الطبيب ؛ پوسنياس الجغرافى .
١٩٠ سكستس إمبركس الفيلسوف .
٢٢٧ نهاية الأسرة الأرساسية . .

obeikandl.com

الباب الحادى والعشرون

إيطاليا

الفصل الأول

المدن

فلنقف قليلا عند هذا المجد المزعزع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطورية كانت أعظم شأناً من مدينة رومة ؛ ذلك أننا قد أطلنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذى استحوذ على عقول المؤرخين كما خلب ألباب سكان الولايات ؛ لكن الواقع الذى لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعد مقرها فى عاصمتها الفاسدة المحتضرة ؛ بل إن ما بقى لهذه الدولة من قوة وحيوية ، وكثيراً مما كان فيها من جمال ، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلى ، إن هذا كله كان فى الولايات وفى إيطاليا ؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكوّن لأنفسنا فكرة صحيحة عن رومة ، وعما قامت به من جلائل الأعمال فى الإدارة والسلم ، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التى كان يتكون منها العالم الرومانى(*) .

قال بلنى الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا : ترى كيف أبدأ هذا العمل ؟ ألا ما أكثر ما هنالك من بلدان ! — ومنذا الذى يستطيع أن يحصيها كلها ؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده ! » لقد كان حول رومة وجنوبيها إقليم

(*) فى وسع القارئ أن يتتبع هذا الطواف على الخرائط التى فى هذا الكتاب .

لا تيوم ، الذى كان فى بادئ الأمر أمها ، ثم صار عدوها ، ثم هُزيها ، ثم جنة من الضواحى والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والذوق السليم . وكان إلى جنوبى العاصمة وغربيها نهر التيبر وطرق برية صالحة ترطها بالمرفأين المنافسين لها وهما پورتس Portus وأستيا على البحر التهينى . وقد وصلت أستيا إلى أوج عزها فى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى ، فكانت شوارعها غاصة بالتجار وصائدى السمك ، ودور تمثيلها مزدحمة بهم ؛ وكانت بيوتها ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمثالها فى رومة الحاضرة ؛ وقد تحدث عنها سائح من فلورنس فى القرن الخامس عشر حديث المعجب بثروتها وزينتها العظيمة . وتدل بعض الأعمدة الباقية منها إلى اليوم ، ويدل أحد المذابح البديع التصميم والذى نقشت عليه أزهار جميلة دقيقة ، على أن سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق .

وكان إلى جنوبى أستيا على شاطئ البحر مدينة أنتيوم Antium (أنزيو Onzio) حيث كان لأغنى الرومان ، ولكثير من الأباطرة ، وللمحبوبين من الآلهة قصور أو هياكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبيض لتستقبل ما يسرى فيه من نسيم عليل . وقد وجدت فى خرائبها التى تمتد نحو ثلاثة أميال ، تماثيل ذات روعة وجمال ، منها تمثال المجالد البرغيزى وتمثال أپلو بلڤدير . وبالقرب منهما أثر باق إلى اليوم كان يذكر « المواطنين العظام » الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كانوا من عهد قريب يستمتعون برؤية أحد عشر مجالداً يموتون وهم يقاتلون عشرة دببة ضارية[٢] . وكان إلى شمالها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكوينم مسقط رأس جوڤنال وأربينم Arpinum التى كانت تفخر بابنيها ماريوس وشيشرون . وعلى بعد عشرين ميلا من رومة كانت تقوم مدينة پرانستى Praeneste القديمة (پلسترينا الحديثة Palestrina) ، وكانت بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفح الجبل ، وحدائقها

تشتهر بوردها ، وقلة جبلها يتوّجها هيكل ذائع الصيت للإلهة فورتونا پريمجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت المخاض ، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات . وكانت تسكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن رومة غنية مثلها بالحدائق والقصور ، وفيها وُلد كاتو الكبير ، واحتفظ شيشرون بكتابة « الجادوت التسكيولانية »(*) . وكانت أعظم ضواحي رومة شهرة ضاحية تيبور (ترڤولي) التي مد إليها هدريان قصره الريفي والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمر سني أسرها .

وإلى شمال رومة تقع إترووريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعا : وفيها بلدة پروزيا Perusia التي خرب أغسطس معظمها وجدد بناء بعضها ، وجعل فنانوه فيها قوسا تسكانيا قديما : وأنجبت أريتيوم Arretium ميسناس Maecenas وبعثت به إلى رومة ، وأخرجت خزفاً للعالم القديم ، وكانت مدينة پيسي Pisae في ذلك الوقت قد عمرت طويلا ، وتعزو هذه المدينة اسمها ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاءوا من پيزا Pisa في البلوپونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus . وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia ، يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدر مستقبلها حق قدره : وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من إترووريا محاجر كرراز Carrara التي كان ينقل منها أجمل رخام رومة إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة : وكانت چنوى من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمالي إيطاليا الغربي . ونسمع من زمن بعيد ، أي من عام ٢٠٩ ق . م ، أن القرطاجنيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس ، وأنها دمرت بعد

(*) ولا تزال فرسكاتي Frascati وارثة تسكيولم ملجأ أثرياء الإيطاليين . وفيها قصور الدبرتديني ، وترلونيا ، ومندرجوني وغيرها .

ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت فى كل مرة تبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاء وازدهاراً .

وعند قاعدة جبال الألب كانت أوغستا تورنورم Augusta Taurinorum التى أنشأها الغاليون التوريئيون Touurini Gauls ، والتى جعلها أغسطس مستعمرة رومانية ؛ وفى مقدور الإنسان أن يرى الآن أرصفتها ومجاريها القديمة تحت أرض شوارع تورين ، وقد بقى فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت فى يوم من الأيام حصناً يصد عن البلاد المغيرين عليها من الشمال . وهنا يلتقى نهر پدوا (البو) الكسول الذى ينبع من جبال الألب الكتية Cottian ويجرى نحو الشرق مائتى ميل وخمسين ميلا ، ويقسم الجزء الشمالى من إيطاليا قسمين كانا يعرفان فى عهد الجمهورية بغالة ما قبل البو وغالة ما وراء البو . وكان وادى البو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها ، وأكثرها سكانا ، وأعظمها رخاء .

وكان - عند سفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة - ڤربانس Verbanus (مجيورى Maggiori) ، ولاريوس Larius (كومو Como) ، وبناكس Benacus (جاردا Garda) ، التى كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن فى هذه الأيام . وكان يبدأ من كومم ، مدينة پلنى الأصغر طريق تجارى رئيسى يتجه جنوباً إلى مديولانم Mediolanum (ميلان) . وقد استقر الغاليون فى هذه المدينة فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أضحت فى أيام ڤرجيل من الحواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة ؛ وقبل أن يحل عام ٢٨٦ صارت عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل رومة . وكانت ڤيرونا وقتئذ تسيطر على التجارة التى تعبر ممر برنر Brenner ، وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جدد حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظرة . وقامت على نهر البو الملتوى مدينة بلاسنتيا Placentia (بياسنزا

الحديثة Piacenza ، وكرمونا Cremona ، ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara — وكانت فى أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغاليين .

وكان إقليم فنيشيا يقع شمال نهر البو وشرق الأديج Adige . وقد اشتق اسمه من الفنيتى Veneti ، المهاجرين الأولين من ألبريا Illyria . ويضف لنا هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللائى فى سن الزواج . ويقدّرون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمالها ، ويزوّجونها ممن يؤدى ذلك الثمن ، ثم يتخذون تلك المهور باثنة مغرية للفتيات لمن كنّ أقل من هؤلاء جمالا وفتنة(٤) . ولم تكن مدينة البندقية (Venice) قد نشأت بعد ، ولكن مدناً كبيرة قامت عند پولا Pola على شبه جزيرة إستريا Istria ، وترچستى Tergeste (تريستة Trieste) وأكويليا Aquileia ، وپتڤيوم Patavium (پدوا Padua) تتوج رأس البحر الأدرياوى . وقد بقى فى پولا من أيام الرومان قوس نصر فخم ، وهيكل ظريف ، ومدرج لا يفوقه فى الروعة إلا الأصل الذى بنى على نمطه وهو الكلوسيوم . وكان يمتد إلى جنوب نهر البو سلسلة من المدن تبدأ من بلاسنتيا مخترقة پارما ، وموتينا (مودينا) ، وبونونيا Bononia (بولونيا) ، وفافنتيا Faventia (فينزى Faenze) وتنتهى عند أرمنيم .

وهنا عند رمينى Rimini يقوم جسر من الجسور التى لا حصر لها والتى أقامها المهندسون الرومان ، وهو أكثر الجسور احتفاظا بشكله الكامل القديم . وكان الطريق الفلامينى يمتد على هذا الجسر إلى المدينة مخترقاً قوساً يعادل الخلق الرومانى فى صلابته وسيطرته . ويتفرع منه طريق فرعى يصل بتونيا پراڤنا بندقية الأيام الرومانية . وقد شيد هذا الطريق على قوائم فى المستنقعات التى لوثتها عدة أنهار تصب فى البحر الأدرياوى . ويصف استرابون مدينة راڤنا بأن « فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعديات »(٥) . وقد اتخذها أغسطس مقراً لأسطوله الأدرياوى ، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم فى القرن

الخامس . وقد كان تفوق شمالى إيطاليا على سائر أجزائها فى خصب التربة ، وفى جوه الصحى المنشط الباعث على العمل ، وفى موارده المعدنية ، وفى صناعاته المختلفة المتنوعة ، وتجارته النهرية القليلة النفقة ، كان تفوقه فى هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا فى القرن الأول الميلادى ومن ناحية الزعامة السياسية فى القرن الثالث .

ولم ينشأ على الساحل الشرقى فى جزئه الممتد جنوبى أرمينيم وشمالى برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة ، وذلك لأن هذا الساحل صخرى كثير العواصف قليل المرافئ . بيد أنه كان فى أمبريا Umbria ، وبسينم ، وسمنيوم ، وأپوليا ، بلدان صغرى كثيرة لا يستطاع الحكم على ثرائها وفنها إلا بدراسة أنقاض بمبى . ومن هـذه البلدان أسسيوم Assisium مسقط رأس پروپرتيوس والقدايس فرانسيس ، ومنها سرسينا Sarsina التى ولد فيها بلوتس Plautus ؛ وامتيرنم Amiternum مسقط رأس سلست Sallust وسلمو Sulmo التى شهدت مولد أوڤد ، وڤنوزيا التى شهدت مولد هوراس . ولم تشتهر بنفنتم بهزيمة پرس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذى أقامه فيها تراچان وهدريان . وقد قص هدريان فى نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله المجيدة فى الحرب والسلم . وكانت برنديزيوم القائمة على الساحل الجنوبى الشرقى تشرف على طرق الاتصال فى دلماشيا وبلاد اليونان والشرق . وعند « عقب » إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنتم ، وكانت من قبل دولة — مدينة عزيزة الجانب ، ولكنها لم تكن فى الوقت الذى نتحدث عنه إلا مشتى آخذاً فى الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان . وفى جنوبى إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضى وحولوها إلى مراع للماشية ؛ ففقدت المدن مَن تعتمد عليهم من المزارعين ، واضمحلت طبقاتها من التجار وأرباب الأعمال ، وأفل نجم العشائر اليونانية التى كانت تنفق أموالها بسخاء فى الأيام السابقة ، وذلك بسبب تسرب

القبائل المهجية إليها وبسبب قيام الحرب البونية الثانية ، فاضمحل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحل فيها ببطء محل اللغة اليونانية . وفى « إصبع » إيطاليا كانت مدينة رجيوم Rhegium (رجيو Reggio الحالية) ذات المرفأ الصالح . وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية . وعلى الشاطئ الغربى كانت تقوم ڤيليا Velia ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا ، وحين كان يتردد فى جنباتها أصداء أشعار پرمنيدز وزينون وأقوالها المتناقضة الخبيثة . وقد بدلت الحالية الرومانية التى استعمرت پوسيدونيا اسم هـذه البلدة فجعلته بيستم Paestum ، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة . وكان أهلها اليونان فى الوقت الذى نتحدث عنه قد أخذوا يذوبون فى الدم « البربرى » — الإيطالى فى هذه المرة — الذى كان ينصب فيها من الريف القريب منها : ولم تبق الحضارة اليونانية حيـة فى إيطاليا إلا فى كمپانيا .

وكانت كمپانيا — المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بنابلى — من الناحية الجغرافية جزءا من سمنيوم . أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالما مستقلا بنفسه ، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدماً من رومة ، وكانت قوية من الناحية المالية ، جمعت فى رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السياسية ، والمنافسات الأدبية ، والازدهار الفنى ، والألعاب العامة المثيرة . وكانت أرضها خصبة التربة تنتج أحسن الزيتون والكروم فى إيطاليا ، وكان يصدر منها النبيذ السرنتى Surrentine والفالرنى Falernian الذائعا الصيت ، ولعل ڤارو Varro كان يفكر فى كمپانيا وهو يتحدى العالم بقوله : « يامن ضربتم فى أرضين كثيرة ، هل رأيتم فيها أرضاً زرعت أحسن من أرض إيطاليا ؟ ... أليست إيطاليا مليئة بأشجار الفاكهة امتلاء يخيل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم ؟ »[٦] . وفى طرف كمپانيا الجنوبى شبه

جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد ناتئة فى البحر من سالرنم Salernum إلى سرنتم Surrentum . وكانت القصور الصغيرة منبثة بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال ، كما كانت تقوم بمحاذاة شاطئ البحر . وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتو Sorrento فى هـــذه الأيام ، وقد لقبها پلنى الأكبر بأنها « بهجة الطبيعة » التى حبتها بكل ما لديها من هبات[٧] ؛ ويبدو أنه لم يكد يتغير فيها شىء فى خلال ألفى عام ، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعاداتهم القديمة ، وأن آلهتهم فى هذه الأيام هى آلهتهم فى الأيام الخالية ؛ ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له .

وكان فى مواجهة هذا اللسان البارز فى البحر جزيرة كپريا Capraea (كاپرى Capri) تلاطمها الأمواج من جميع الجهات . وكان بركان ڤيزوف المطل على الشاطئ الجنوبى للخليج يرسل دخانه فى السماء ، بينما كانت پمپى وهركيولانيم ترقدان تحت طبقات الحمم . ثم تلى هاتين المدينتين نيوپوليس Neopolis « المدينة الجديدة » أكثر بلاد إيطاليا اصطباغاً بالصبغة اليونانية فى عهد تراجان . وفى وسعنا أن نتبين من كسل نابلى فى هذه الأيام مدى انهماكها القديم فى الحب واللهو والفن . لقد كان أهلها إيطاليين ، ولكن ثقافتهم ، وعاداتهم ، وألعابهم كانت كلها يونانية . وكان فيها هياكل ، وقصور ، وملاه جميلة ؛ وكانت تقام فيها مرة فى كل خمس سنين مباريات فى الموسيقى والشعر نال استاتيوس فى واحدة منها جائزة . وفى الطرف الغربى من الخليج كان ثغر بتيولى Puteoli (پزيولى Puzzuoli الحديثة) التى اشتق اسمها من رائحة بركها الكبريتية[٨] . وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة رومة وبفضل مصنوعاتها الحديدية ، وخزفها ، وزجاجها . وكان فيها مدرج تدل ممراته التى تحت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التى كان يصل بها المجالدون والوحوش إلى المجتلد . وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولى كانت تتلألأ قصور بايا Baiac التى

يزيد بهاءها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر . هنا كان يلهو قيصر وكلجيولا ونيرون ، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرثية يأتون ليستحموا فى مياه عيونها المعدنية . وكانت المدينة تجنى فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد الخلقى ؛ وهاهوذا ڤارو Varro يقول إن فتياتها كن ملكاً مشاعاً ، وإن كثيرين من فتيانها كانوا بنات[٩] ، وكان كلوديوس يرى أن شيشرون قد جلله عار لا يمحى أبد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة[١٠] . ويقول سنكا متسائلا : « أتظن أن كاتو كانت تحدثه نفسه بأن يقيم فى قصر ملىء بأسباب اللهو والسرور ، يستطيع وهو فيه أن يحصى عدد من يمر به أمام عينه من النساء القاصرات اللائى يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة الألوان ، والورود التى تتمايل حول البحيرة ؟ »[١١] .

وعلى بعد بضعة أميال قليلة شمال بايا ، فى فوهة بركان خامد ، كانت بحيرة أفيرنس Avernus تبعث فى الجو دخاناً كبريتياً بلغ من قوته أن وصفته الأساطير بقولها إنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً ؛ وكان بالقرب من الكهف الذى شق فيه إنياس طريقه السهل إلى الجحيم كما جاء فى ملحمة فرجيل .

وفى شمال البحيرة كانت مدينة كومى Cumae القديمة ، وكانت قد أخذت تحتضر فى ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها ابنتها مدينة نيوپوليس التى كانت أكثر منها جاذبية ، ولوجود مرفأين بجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بتيولى واستيا ، ولتقدم الصناعة فى كپوا Capua . وكانت كپوا تبعد عن شاطىء البحر فى الداخل نحو خمسين ميلا وتقوم فى إقليم خصيب كان ينتج فى بعض الأحيان أربع غلات فى العام[١٢] ، ولم يكن فى إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها من مصانع البرنز والحديد . وقد جازتها رومة على مساعدتها هنيبال جزاء أضر بها قرنين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها ، ووصفها شيشرون

فى خلالها بأنها « مسكن من ماتوا سياسيا »[١٣]. وظلت كذلك حتى أعادها قيصر إلى سابق عهدها بأن جاء إليها بآلاف من المستعمرين الجدد ، وأضحت فى أيام تراجان مدينة مزدهرة مرة أخرى .

لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التى كانت قائمة فى إيطاليا القديمة والتى سردناها على القارئ سرداً سريعاً ليست أكثر من أسماء . ولشد ما نخطئ إذ نظن أنها مجرد ألفاظ على خريطة ، أو لا نحس أنها كانت مساكن صاخبة لرجال مرهفى الحس يجدُّون فى طلب الطعام والشراب ، والنساء والذهب .

والآن فلنرفع الرماد عن إحدى المدائن الرومانية لنقف من آثارها التى احتفظت بها بأعجب الوسائل عن مجرى الحياة فى تلك الشوارع القديمة .

الفصل الثانى

بمبى

كانت بمبى إحدى البلدان الصغرى فى إيطاليا ، وقلما يرد لها ذكر فى الآداب اللاتينية إلا إذا ذكر حساء سمكها المتبل ، وكرنبها ، ودفنها تحت الرماد البركانى . وقد أنشأها الأسكانيون Oscans ، ولعلها تضارع رومة فى قدم عهدها ، وسكنها مهاجرون من اليونان ، واستولى عليها سلا ، وجعلها مستعمرة رومانية ، ودمر بعضها زلزال فى عام ٦٣ م . وكان بناؤها لا يزال يجدد فى الوقت الذى دمرها بركان فيزوف مرة أخرى . فقد ثار هذا البركان فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ٧٩ م ؛ وقذف من فوهته رماداً وصخوراً فى الهواء وعلته ألسنة من اللهب . وانهمر فوقها مطر غزير فاستحالت المواد التى قذفها البركان سيلا جارفاً من الطين والحجارة حط على بمبى وهركيولانيم ، فلم تمض إلا ست ساعات حتى غطاهما بطبقة يبلغ سمكها ثمانى أقدام أو عشر . وظلت الأرض تزلزل والمنازل تتداعى طوال ذلك النهار والليلة التى أعقبته . فدفن النظارة تحت أنقاض دور التمثيل[١٤] ، واختنق مئات من الأهلين بالتراب والدخان ، وثارت الأمواج فحالت بين من حاولوا النجاة بطريق البحر . وكان پلنى الأكبر وقتئذ يتولى قيادة الأسطول الغربى عند ميسينم Misenum القريبة من پتيولى . وتأثر قلبه باستغاثة أهل البلدة وطلبهم النجدة ، كما تأثر برغبته فى مشاهدة هذه الظاهرة عن كثب ، فركب سفينة صغيرة ، ونزل منها إلى البر على الشاطئ الجنوبى للخليج ، وأنجى عدداً من الأشخاص ؛ وبينما كانت تلك الجماعة تعدو خوفاً من البَرَد والدخان اللذين كانا يتقدمان نحوها ، خارت قوى العالم الشيخ ، فسقط فى

الطريق وقضى نحبه(*)(١٥) . وفى صباح اليوم التالى انضمت زوجته وابن أخيه إلى الجماعة اليائسة التى كانت سائرة بإزاء الساحل تحاول الفرار من الموت ، وكانت ثورة البركان وقتئذ لا تزال مستمرة ، وقد غطت السماء من نابلى إلى سرنتم بالحجارة والرماد حتى استحال النهار ليلا حالك السواد : واستولى الهلع على الفارين الذين افترقوا فى هذا الظلام الدامس عن أزواجهم وأبنائهم ، فعلا صراخهم وعويلهم وزادوا الموقف هلعا ورعبا . وأخذ بعضهم يستغيث بمختلف الآلهة لتنجيهم من هول الكارثة ، وبعضهم ينادى بأن الآلهة كلها قد هلكت ، وأن نهاية العالم التى ظالما تنبأ بها الناس قد حلت(١٦) . ولما صفت السماء آخر الأمر فى اليوم الثالث كانت الحمم البركانية وما اختلط بها من الطين قد غطت كل شىء فى بمبى إلا أعالى السقف ، وحتى كانت هركيولانيم قد اختفت عن آخرها من الوجود .

وأكبر الظن أن ألفين أو نحوهما من سكان بمبى البالغ عددهم عشرين ألفا قد قضوا نحبهم فى هذه الكارثة ، وقد حفظ الرماد البركانى أشكال عدد من الموتى ، ذلك بأن الأمطار وأحجار الخفاف التى سقطت عليها غطتها بطبقة سميكة صلبت حين جفت ، ولما ملئ فراغ هذه القوالب العاجلة خرجت منه أشكال بشعة . وعاد قليلون ممن نجوا إلى أنقاض المدينة يبحثون فيها عن بعض ما فقدوه من النفائس ، ثم تركوا هذا الموضع فيما بعد فغطته الأتربة على مر الأيام . وفى عام ١٧٠٩ احتفر قائد نمساوى حفرة فى موضع هركيولانيم ، ولكن الرواسب التى فوق المدينة والتى كان سمكها فى بعض المواضع يبلغ ستين قدماً بلغت من السمك درجة جعلت أعمال الحفر تسير ببطء شديد وتتكلف نفقات باهظة . أما بمبى فقد بدأ الكشف عنها فى عام ١٧٤٩ ، وظل حتى الآن يجرى فى فترات متباعدة . وقد كشف الآن عن الجزء الأكبر من المدينة ، فظهر عدد كبير من

(*) انظر وصف بلنى الأصغر لموت عمه فى هذه الثورة البركانية فى الجزء الأول من كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

البيوت ، والأدوات ، والنقوش ، فاستطعنا أن نعرف عن بمبي القديمة من بعض النواحي أكثر مما نعرفه عن رومه القديمة .

وكان محور حياة المدينة هو السوق العامة ، شأنها فى هذا شأن سائر المدن الإيطالية . وما من شك فى أن هذه السوق كانت فى الزمن القديم ملتقى الزراع ، وحاصلاتهم فى « يوم السوق » ؛ وكانت تقام فيها الألعاب ، وتمثل فيها المسرحيات ؛ وقد أقام فيها الأهلون أضرحة لآلهتهم ، فشادوا ضريحا لجوپتر فى أحد طرفيها وضريحا لأپلو فى الطرف الآخر ، وبالقرب من هذا الضريح الأخير أنشئوا ضريحاً لڤينوس (زُهَرة) بمپيانا Pompeiana راعية المدينة وحاميتها . ولكن أهل المدينة لم يكونوا قوما متدينين ، فقد شغلتهم الصناعة ، والسياسة ، والألعاب ، والصيد فلم تترك لهم وقتا للعبادة ، وكانوا إذا عبدوا عظموا عضو التذكير واتخذوه أهم الرموز لطقوسهم الديونيشية(١٧) . ولما أن زادت الشئون الاقتصادية والحكومية فى مقدارها وخطرها ، وعلت قيمتها ، قامت أبنية عظيمة حول السوق اتخذت مراكز للأعمال الإدارية ، وللمساومات ، والمفاوضات ، وتبادل السلع .

وفى وسعنا أن ندرك مما نعرفه عن المدن الإيطالية الحديثة كيف كانت الشوارع المجاورة للسوق تعج بالبائعين الجائلين ، ويعلو فيها ضجيج البائعين والمشترين ، وعجيج الصناعات بالنهار والمرح بالليل . وقد عثر المنقبون فى خرائب الحوانيت على بعض النُّقل ، والعيش ، والفاكهة ، المتفحمة أو المتحجرة التى لم تجد من يشتريها . وفى الشوارع على مسافة من السوق كانت الحانات ، ومحال الميسر ، وبيوت الدعارة ، كل منها يحاول أن يجمع هذه كلها فيه .

ولو لم يحرص أهل بمبي على أن ينقشوا عواطفهم على جدران المبانى العامة لما استطعنا أن نتخيل ما كانت عليه حياتهم من حدة ومضاء . وقد نقلت ثلاثة آلاف من هذه النقوش ، وأكبر الظن أن آلافاً أخرى لم يتح لها البقاء ، وقد اكتفى ناقشوها فى بعض الأحيان بذكر أسمائهم وفحشهم الجرىء ، الذى لا يزال

الناس يحبون أن يفعلوه ؛ ودون بعضهم الأوامر التى كانوا يصدرونها إلى أعدائهم مؤملين أن يطيعها هؤلاء الأعداء كقول واحد منهم « من ساميوس Samius إلى كورنليوس Cornelius : اشنق نفسك » . ومن النقوش ما هو رسائل حب كثيراً ما تكون شعراً : فقد كتبت روميولا Romula تقول إنها « وقفت هنا مع استفيلس Stephylus » ؛ وكتب شاب متيم : «وداعاً يا فكتوريا، وفى وسعك أيا كان مكانك أن تعطسى أحسن عطسة »[١٨].

وليست الحوادث العامة أو القرابين الخاصة المنحوتة أو المرسومة على الجدران بأقل عدداً من هذه الرسائل ، فترى الملاك يعلنون أيام عطلتهم ، والدين فقد لهم متاع يعلنون عن فقده ، ونقابات أرباب الحرف وغيرها من الجماعات تعلن عن تأييد المرشحين الذين يؤمل نجاحهم فى حملات الانتخابات للبلدية ؛ فهاهم أولاء « صائدو السمك يرشحون پوپليوس روفس Popfdius Rofus ليكون إيديلا Aadile ، و « وقاطعو الأخشاب وبائعو الفحم النباتى يطلبون إليكم أن تنتخبوا مارسلينس »[١٩] ؛ وها هى ذى بعض النقوش الخشنة تعلن عن ألعاب المجالدة ، وبعضها الآخر يمتدح شجاعة بعض مشهورى المجالدين مثل سلادس Celadus ؛ وها هى ذى « العذارى تتحسر » أو تهيم بأحد الممثلين المحبوبين — « أى أكتيوس Actius ، يا حبيب الشعب عجل بالعودة ! »[٢٠] . لقد كانت پمپى تعيش لكى تتلذذ ، فقد كان فيها ثلاثة حمامات عامة ، وساحة للتدريب الرياضى ؛ ودار تمثيل صغيرة تتسع لألفين وخمسمائة من النظارة ، وأخرى كبيرة تتسع لخمسة آلاف ، ومدرج يستطيع عشرون ألفاً أن يستمتعوا فيه بآلام الموت يقاسيها غيرهم من الناس بدلا منهم . وهاهو ذا نقش يقول : « سيقتل فى پمپى فى الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين ، والسادس والعشرين ، من نوفمبر ثلاثون زوجاً من المجالدين . . . قدمهم حاكما المدينة . وسيكون هناك صيد ؛ مرحباً

بك يا ميوس Maius ، مرحى يا باريس ! » وكان ميوس هذا أحد حاكمى المدينة ، أما باريس فكان كبير المجالدين .

وتدل آثار داخل المنازل على أن الأهلين كانوا يحيون حياة مفعمة بالنعيم تجملها الفنون المختلفة . فأما البيوت فتكاد تكون خالية من النوافذ والتدفئة فيها نادرة ؛ ولا تظهر الحمامات إلا فى منازل الأغنياء ، وكان لبعض الدور بركة فى حديقة محاطة بالعمد . وكانت أرض الحجرات تصنع من الأسمنت أو الحجر ، أو من الفسيفساء أحياناً ، وقد نقش رجل صريح من طلاب المال على أرض داره هذه العبارة : « مرحباً بالكسب » ؛ ونقش آخر « الكسب لذة »[٢١] . ولم يعثر إلا على القليل من الأثاث ، فقد كان كله تقريباً من الخشب ، ولهذا لم يبق منه شىء يذكر ؛ غير أن عدداً قليلا من النضد ، والأسرة ، والكراسى ، ومصابيح الرخام أو البرنز قد نجت من التلف ؛ وفى وسع الإنسان أن يرى فى متحفى بمبى ونابلى مجموعة متنوعة من الأدوات المنزلية ، من أقلام ، ومحابر ، وموازين ، وأدوات المطبخ ، والزينة ، والآلات الموسيقية .

وتوحى القليا الفنية التى كشفت فى بمبى أو بالقرب منها بأن الأشراف الذين يسكنون فى القصور الصغيرة ذات الحدائق لم يكونوا هم وحدهم الذين يستمتعون بالميزات الثقافية للحياة ، بل كان يشاركهم فيها تجار المدينة . فقد كشفت فى هركيولانيم مكتبة خاصة كانت تحتوى على ١٧٥٦ مجلداً أو ملفاً ؛ ولا داعى هنا لأن نعيد ما قلناه من قبل عن كؤوس البسكوريالى Boscoreale أو المناظر الرائعة والنساء الرشيقات المصورة على جدران منازل بمبى . ولقد كان فى كثير من المساكن تماثيل ذات روعة ، وكان فى السوق العامة وحدها مائة وخمسون تمثالا . وقد عثر فى هيكل جوبتر على رأس لهذا الإله قد يكون فدياس نفسه هو الذى سواه ؛ فأنت ترى فيه القوة والعدالة ماثلتين فى ثنايا الشعر الغزير واللحية الكثة . وكان فى هيكل أبلو تمثال لديانا ثقب مؤخر رأسه حتى يستطيع كاهن

مختبيء أن يتحدث بالنبوءات . وقد عثر فى أحد قصور هركيولانيم الصغيرة على طائفة من التماثيل والأدوات البرنزية كانت من الكثرة بحيث امتلأت بها حجرة ذائعة الصيت فى متحف ناپلى ؛ وأكبر الظن أن روائع هذه المجموعة — عطارد المستريح ، ونارسس أو ديونيشس ، والساتير السكران وإله الحقول الراقص — كانت يونانية بأصلها أو بصنعها ؛ وهى تكشف عن حذق فى الصنع ، وعن السرور غير المحتشم البادى فى الجسم الصحيح السليم ، وهما الخاصتان الماثلتان فى الفن البركستيلى . ومن هذه التماثيل تمثال نصفى من البرنز لأحد الدلالين فى مدينة پمپى ويدعى ل . كاسليوس أيوكندس L. Caacilius Iuocundus الذى وجدت حساباته منقوشة على ١٥٤ لوحاً من الشمع عثر عليها فى داره بمدينة پمپى . ويظهر فى هذا التمثال الرأس الأصلع والوجه الصارم غير المجرد من الحنو . فى هذا التمثال تمتزج الخشونة بالذكاء ، والحكمة بالتآليل الجلدية ، وهو من صنع مثال معاصر لصاحبه — ولعله مثال إيطالى — أظهر فيه شخصية صاحبه على حقيقتها وبأحسن ما تظهر الشخصيات . والحق أن الإنسان لتستريح نفسه لوجود هذه الشخصية الواقعية إلى جانب ما يحيط بها فى متحف ناپلى من تماثيل الآلهة والإلهات الخالية وجوهها من الغضون ، والتى تكاد تنطق معارفها الملساء الوديعة المستكنة لتخبرنا بأن أصحابها لم يعيشوا قط على ظهر الأرض .

الفصل الثالث

نظام البلديات وحياتها

لم تكن الحياة الخاصة والعامة ، حياة الأفراد وحياة الجماعات ، أحد وأقوى مما كانت فى إيطاليا القديمة ؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الخطر ومن استنفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولى تفاصيل نظام البلديات فى عهد القياصرة كثيراً من عنايتنا ، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحكم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتتابعة التى كان الأهلون يعضون عليها بالنواجذ ، لم تعد هـذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضى الحى الذى هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا .

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية أنها تتألف من مجموعة من دول — المدن تحكم نفسها بنفسها إلى حد ما ، وتضم كل منها فى مؤخرتها أرضين واسعة تمتلكها وتسيطر عليها ، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات . وكان معنى الوطنية فى هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته أكثر مما تعنى حبه للإمبراطورية . وكان الأحرار فى كل مدينة يقنعون فى الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة ؛ وقلما كان الذين نالوا حقوق المواطنية الرومانية من غير أهل رومة يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم فى الانتخابات ؛ ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة فى العاصمة مصحوباً باضمحلال مماثل له فى مدن الإمبراطورية كما تدل على هذا بمفى نفسها . وكان لمعظم البلديات الإيطالية مجالس شيوخ Curia — ولمعظم المدن الشرقية مجالس boulé تشريعية — تسن قوانينها وجمعيات comitia ekklesia تختار حكامها ؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال Summa honoraria (والكلمة الثانية مشتقة من honas بمعنى المنصب) نظير تفضلها

عليه بأن يكون حاكماً لها ، وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين إلى حين ببعض المال للأغراض أو الألعاب العامة . وإذ كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجرا فإن دمقراطية الأحرار — أو أرستقراطية الأحرار — قد استحالت فى كل مكان تقريباً أحركية يتولاها ذوو المال والجاه .

وظلت البلديات مائتى عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس فى رخاء وازدهار . ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة الحال ؛ فقد تكفلت الطبيعة والميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ؛ ولكن التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود ، قبل هذا العهد أو بعده ، فعل فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها : ذلك أن نفقات إدارة المدينة كلها تقريبا ، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات ، وغير ذلك من ضروب التسلية ، والألعاب ، وتشييد الهياكل ، ودور التمثيل ، والملاعب ، ومدارس التدريب الرياضى ، والمكتبات العامة ، والباسلقات ، والقنوات التى تنقل ماء الشرب للمدن ، والقناطر والحمامات ، وتجميل هذه كلها بالأقواس والأروقة ذات العمد ، والصور ، والتماثيل ، كانت كلها يتحملها ذوو اليسار . وقد ظل الوطن طوال المائتى عام الأولى من عهد الإمبراطورية يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً أدى فى بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التى كانت تمولها ، أو المدن التى تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء . وقد جرت العادة فى أيام القحط أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء ، وكانوا فى بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين ، ولجميع السكان أحياناً ، زيتاً أو خمراً بالمجان ، أو يقيمون لهم وليمة عامة ، أو يهبونهم قدراً من المال . وخلدت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء . فهاهو ذا مئر من أصحاب الملايين يهب مدينة ألتينم فى فنيشيا ١٫٦٠٠٫٠٠٠ سسترس لإقامة حمامات عامة ، وها هى ذى سيدة تشيد هيكلا ومدرجا فى كسينم Casinum ؛

وهاهو ذا ديسميوس تلس Decimius Tullus يهب تركوينياى Tarquinii حلمات تكلفت ٥٠٠و٠٠٠ره سسترس ؛ وهاهى ذى كرمونا Cremona التى دمرها جنود قسپازيان لا تلبث أن يعاد بناؤها من تبرعات المواطنين . وتذكر النقوش اسمىْ طبيين قدّما كل ما يملكان هبات لنابلى . وفى استيا التى كانت مزدحمة بالسكان دعا لوسليوس جمالا Lucilius Gemala جميع أهلها إلى الطعام ووصف فيها طريقاً طويلا واسعا ، ورمم سبعة هياكل أو أعاد بناءها ، وأعاد بناء حمامات البلدية ، ووهب خزانتها ثلاثة ملايين سسترس(٢٢) .

وكان من عادة بعض الأغنياء أن يقيم الواحد منهم وليمة يدعو إليها قسما كبيراً من المواطنين فى عيد ميلاده أو لمناسبة انتخابه إلى منصب عام ، أو زواج ابنته ، أو ارتداء ابنه الطوغة ، دليلا على بلوغه سن الرشد ، أو تدشين بناء أهداه إلى المدينة . وكانت المدينة تجزى هذا المحسن على إحسانه بأن تعينه فى منصب عام ، أو تقيم له تمثالا ، أو تمتدحه بقصيدة أو نقش . ولم يكن الفقراء يشعرون بالذلة حين ينالون هذه العطايا كلها ، ذلك بأنهم كانوا يتهمون الأغنياء بأنهم لم يحصلوا على هذا المال الذى يفعلون به الخير إلا من طريق الاستغلال ، ومن أجل هذا كانوا يتطلبون الاقتصاد فى المبانى الجميلة والتماثيل ، ويلحون فى تخفيض ثمن الحبوب والإكثار من الألعاب(٢٣) .

وإذا أضفنا إلى هبات الأفراد ، ما كان يهبه الأباطرة للمدن ، وما كان يقام فيها بأموالهم من مبانٍ ، وما يقدمونه لها من مال لتخفيف ما يحل بها من الكوارث ، فضلا عن الأعمال العامة والمناصب التى كانت تحول من خزائن البلديات ، إذا فعلنا هذا بدأنا نحس بفخامة المدن الإيطالية وعزها فى عهد حكومة الزعامة . لقد كانت شوارعها مرصوفة ، وكان فيها مجار لنقل المياه القذرة ، وشرطة لحماية الأمن ، وكثير من وسائل الزينة ، وخدمة طبية مجانية للفقراء من أهلها ، وماء نقى نظيف يصل إلى البيوت فى أنابيب نظير أجر قليل ، وطعام يقدم

(شكل – ٢) جوهرة أغسطس (متحف فينا)

للفقراء بثمن بخس . وكانت الحمامات فى معظم الأحوال مباحة من غير أجر ينفق عليها من هبات المحسنين ، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على تربية الأبناء والإكثار منهم ؛ وكانت المدارس ودور الكتب تنشأ للتعليم والمطالعة ، والمسرحيات تمثل ، والحفلات الموسيقية تقام ، والألعاب تنظم لتنافس بها تلك المدن رومة غير عابئة بما تنفقه فيها من مال . ولم تكن حضارة المدن الإيطالية حضارة مادية بالقدر الذى كانت عليه فى العاصمة ؛ فقد كانت هذه المدائن تتنافس فى إقامة المدرجات ، ولكنها أقامت كذلك هياكل فخمة ، يضارع بعضها أحسن ما كان منها فى رومة[٢٤] ، وجعلت شهورها مرحة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة . وكانت تنفق بسخاء على الأعمال الفنية ، وتنشئ القاعات الرحبة للمحاضرات ، وللشعراء ، والسوفسطائيين ، والخطباء ، والفلاسفة ، والموسيقيين . وكانت تيسر لمواطنيها أسباب الصحة ، والنظافة ، والتنزه ، والحياة الثقافية القوية . ومنها ، لا من رومة ، خرج عظماء المؤلفين اللاتين ، وعدد كبير من أحسن ما فى متاحفنا من روائع النحت كتمثال نيكى (العدالة) فى متحف نابلى ، وتمثال پروس (الحب) فى سنتومسلا Centumecella ، وتمثال زيوس فى أتركولى Atricolic . وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان ، لا يقلون عن عددهم قبل هذا القرن ، فى المدن التى قامت مكانها وتؤمنهم من مصائب الحرب تأميناً منقطع النظير .

وقصارى القول أن القرنين الأول والثانى من التاريخ الميلادى قد شهدا ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة .